

عمر راسم وأعماله الفنية

د. لخضر درياس
مفتش بوزارة الثقافة -
الجزائر

يعتبر رائد الفن والزخرفة في الجزائر قدم الكثير للفن ومع ذلك ضل مجهولا لدى كثير من أهل الفكر والثقافة في أيامنا.

هو عمر راسم بن علي بن سعيد بن محمد البجائي حسب ما أورده الدكتور محمد ناصر وينسبه الدكتور محمد سعيد شريفي إلى أصول تركية اعتمادا على وجود لقب راسم في قائمة الخطاطين الأتراك، والواقع أن راسم لقب مهني عام قد يطلق في أي بلد إسلامي. على شاكلة صفار، خزاف، حداد وغيرها و... نرجح نسبه إلى صنهاجة وبالذات للحماديين الذين سجلوا له توقيع كتاباته باسمه المستعار «ابن المنصور الصنهاجي» وأحيانا يضيف له الحمادي. علما أن المنصور هذا هو أمير حمادي.

ولد بالجزائر العاصمة يوم الثلاثاء الخامس من ربيع الول سنة 1302 هـ الموافق 1884م، دخل كتاب بابا عثمان بالعاصمة فحفظ القرآن الكريم في السابعة من عمره، وفي الثانية عشرة عين حزايا بالمسجد سفير من طرف الشيخ المفتي بوقندورة.

تعلم بعض الدروس في النحو على يد الشيخ محمد بن مصطفى خوجة (مصرية) (1865 - 1915م) بنفس المسجد كمناقضة سنة واحدة بالمدرسة الثعالبية وأخرج منها في ظروف غامضة ليلتحق بعدها بمسيد فاتح حيث تابع بعض الدروس في اللغة الفرنسية لكن لم يطل مكوثه بها ، وعلى الرغم من قلة سنوات تدرسه استطاع أن يكون نفسه بانصرافه للمطالعة الجادة باللغتين العربية والفرنسية خاصة في الفترة التي قضاها في سجن بربروس ما بين 1915 - 1921م. وفي سنة 1909 راح يكتب مقالات نشرها في جريدة (المُرشد) و(مرشد الأمة) التونسيّتين.

راودته فكرة إصدار جريدة باسم الإصلاح تغطي حاجة البلد إلى صحافة وطنية نزيهة إلا أن العجز المادي حال دون تحقيق مبتغاه، وفي سنة 1908م اصدر مجلة الجزائر وهي أول مجلة عربية يصدرها جزائري وثالث مجلة في العالم العربي، توقفت بعد صدور العدد الثاني أمام العقبات المادية في فيفري 1913م، ساعد عمر بن قدور الجزائري ليؤسس جريدة (الفاروق) والتي خلصت فيما بعد لعمر بن قدور.

في أكتوبر 1913 عاد ابن المنصور الصنهاجي أو عمر راسم بجريدة ذو الفقار وكان بحق أمة في رجل، اجتمع فيه عمر وراسم والمنصور والصنهاجي، حرر فصول ورسم صورها وطبعها على المطبعة الحجرية وتكفل بتوزيعها وتمويلها والدعوة فيها إلى الإصلاح على الطريقة العبدوية، لكن بأسلوب حاد وجريء، توقفت ذو الفقار

بعد العدد الرابع لكن عمر راسم بقي ينشر آراءه في صحف عربية وفرنسية مثل (الحق الوهراني)، (المُرشد)، (مُرشد الأمة)، (النجاح)، (المباحث)، (السعادة)، (هنا الجزائر).

بعد خروجه من السجن وهب نفسه للفن وأخلص للخط والرسم ليعيشه تعليما وتعلما، حيث اختير هو وأخوه محمد ليدرسا الخط العربي والزخرفة والمنمنمات عام 1931م بمدرسة لتعليم فن التصوير والزخرفة العربية والشرقية بالعاصمة.

من خلال مقالاته الجريئة عبر الجرائد والمجلات تظهر آراؤه في النقد الفني أو فن النقد، إذ نجده في مقالة التصوير والعلم في مجلة هنا الجزائر يؤكد حاجة العلم إلى التصوير ليكون أكثر يسرا ووضوحا فيقول : «احتاج العلم إلى التصوير فزين مصنفااته مضطرا لا مختارا لحل المسائل العويصة بتشخيصها أمام أعين الباحثين» وتتعدى وظيفة التصوير الجانب التعليمي إلى الجانب الحياتي أو العلاجي فيقول : «اضطروا كذلك إلى التصوير حيث جعلوه لازما في علاج الأمراض عن طريق الآلات الفوتوغرافية التي تكشف عن الأمراض الباطنية.»

ويتتبع عمر راسم الحالات التي يصبح فيها التصوير فرض كفاية فهو ضروري من أجل تسهيل العلوم وتعميمها، وحتى في أنواع العبادات نجد التصوير يرمي بضلاله ويعلم الناس كيفية أداء حركات الصلاة وكيفية الوضوء، ولقد أباحه علماء العصر لما رأوا فوائده التي تيسر الفهم وترغب في العمل الصالح.

«فالتصوير حينئذ يحل رموز العلم بكيفية محسوسة،
وهكذا كاد أن يكون فرضا على المؤمنين» .

وينتهي في مقاله إلى الإعلان عن تنصيب التصوير دولة
مستقلة، لكن لا حدود لها ملكها الذكاء وحارسها الشعور.

ولا عجب في أن يكون للتصوير كل هذه الأهمية في فكر
فنان عرف عنه عشقه للأشكال والألوان، ويختم مقاله بقوله :
«صورة واحدة تسحر الأبواب، وتفتح البصائر وتكون قدوة للرجال
في جليل الأعمال» .

الفن والتقليد

يرى عمر راسم في التقليد بأنه من نتائج الضعف والجهل
والبلادة « فمن المحال أن يبلغ المقلد درجة المجتهد والمبتدع في كل
شيء » والأسباب كما يوضحها في مقاله «أن المقلد يترك شخصيته
ليصل إلى درجة من يقلده» إذ هو في الحقيقة كالسارق الذي يتباهى
بما اختلسه.

ويمضي في تجريد المقلد من كل حقوقه بالانتماء لمملكة
الفن بوضع شروط أساسية تكون بطاقة تعريف مواطنيها فيقول :
«كيف تظهر البراعة والتفوق من مقلد وشروط الفن الابتكار
والإبداع اللذان تجود بهما القرائح حسب الطبائع الغريزية، لا اعتبار
إلا لشخصية الفنان المبتكر».

«المقلد كالماشي وراء القافلة يلتقط ما عسى يسقط من فضلات أصحابها»، فلمسة الفنان المبدع المبتكر هي التي تعطيه شرف الانتماء إلى الفن. وهذا ما يبرر اختلاف الفنانين على كثرة عددهم وما يبرر أيضا سعي المبدعين إلى وضع بصماتهم الخاصة على أعمالهم.

يبدأ الفن من ريشة واحدة ولكن الألوان التي بداخلها هي التي تعطي أناملنا خصوصيتها، وعلى رأيه « كل فنان عاشق لفنه مجتهد في الوصول إلى غاية مرغوبة» ويقول أيضا : «كلما نظرنا إلى نبغاء الفنانين مع كثرتهم إلا ووجدنا لكل واحد شخصية خاصة تظهر في منتجاته نجدها في تركيب الصور وحركاتها وفي وضع الألوان، والظل والنور والخيال واختيار المواقع».

ويخلص في النهاية إلى خطورة التقليد وآثاره المدمرة لشخصية المقلد مستشهدا بآراء بعض المتكلمين القائلة : «إن المقلد حتى في العقيدة كافر».

الموسيقى الأندلسية

بلغت الموسيقى الأندلسية درجة من السمو، جعلت ملوك أوروبا حينها يتنافسون في الظفر بموسيقى أو ملحن أندلس عربي يزين مجالسهم، وبعد تشتت الأمة الأندلسية في بلدان شمال إفريقيا نشرت تعاليمهم الفنية بهذه البلدان ونالت كل من المغرب الأقصى وتونس والجزائر حفا وافرا من ذلك ومع طول المدة تعرضت هذه الموسيقى في وطنها الجديد للتحريف في نغماتها وتغيير في تراتيبها

ونظاماتها المحكمة وأصبحت في تونس والمغرب على طباع أهلها، كما يشير إلى مثل هذا التحريف في الألحان العربية والعراقية بمصر، أثر امتزاجها بالألحان البدوية والأوروبية والأمريكية.

ولحسن الحظ فإن الجزائر حافظت على هذا التراث دون تحريف حرف أو صوت، بل نقلت عنهم ألحانهم ونغماتهم وأناشيدهم نقلا متينا كما روت أ الحديث الشريف، وأصبحت الجزائر بحق غرناطة إفريقيا الشمالية حيث اهتمت بالمحافظة فكان تقاة الأمة وأعيانها وأدباؤها يتنافسون في حفظها في الصدور ولعل أشدهم اهتماما هم العلماء وهي بدعة أتت بها الفكرة الإسلامية التي انتشرت وقتها، فأصبحنا نلاحظ أن الأئمة والمفتين يقومون بالتأليف في الموسيقى أمثال عبد الرحمن الأمين إمام الجامع الكبير وجد شيخنا قدور الأمين إمام مسجد سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وسيدي أحمد بن عمار مفتي المالكية الذي أدخل الألحان الموسيقية ثقيلا وخفيفا حسب القواعد العلمية الموسيقية والأناشيد والموشحات الجديدة التي تتشد في الزوايا والأضرحة، وكان يشاركه في ذلك الأئمة والفقهاء وسار الكثير منهم على منواله أمثال الشيخ أحمد بن قيطان إمام الجامع الجديد وأستاذ الشيخ محمد بوقندورة مفتي الحنفية سابقا والشيخ محمد الكحال بن الخوجة، وآخر فنان من بقايا السلف العالمين بقواعد الفن هو الشيخ محمد سفينجة المتوفي 1908م وهو تلميذ الشيخ محمد المنمش وينهي

مقاله بالنقد اللاذع للمقلدين المنحطين خلقا وخلقاً للأغاني الأجنبية
الفضيلة ونغمات النواح.

وما بين الرسم والمقالة والإذاعة ضل راسم يرسم الطريق
للأجيال القادمة إلى أن رحل لجوار ربه بعد مرض لازمه طويلاً وكان
ذلك يوم الجمعة 03 فيفري 1959م حيث دفن في مقبرة سيدي عبد
الرحمن الثعالبي.

أعماله الفنية

ما بين نظرياته الفنية التي كان ينشرها في مقالاته وعبر
راديو الجزائر وأعماله التطبيقية التي كان يجسدها خطأ وزخرفة
سطر طريقاً للفن محفوفاً بالمتاعب ولكنه محاط بالجمال أيضاً.

زخرف وخط شواهد القبور كما صنع أختام حكام الجزائر
المستعمرة، زخرف أغلفة المجلات والكتب وحتى اللافتات بأسماء
شوارع المدينة كان راسم يصنع تفاصيلاً ويلبسها من سحر خطه
الجميل أشكالاً شتى، كل هذا كان ينجزه موازاة مع مهنة
التدريس وهي أهم رسالة يؤديها، إذ كون جيلاً يستطيع الصمود في
وجه الحملة الصليبية التي استهدفت الجزائر، وحسب وثيقة بخط
مصطفى الدباغ فإن عدد من تخرجوا على يد عمر راسم بلغوا تسع
وأربعين فناناً أعدهم للتعريف والمحافظة على الفن الإسلامي
بالجزائر. ونظم برفقتهم معارض فنية في الجزائر وفرنسا، لاقت

نجاحا كبيرا نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، معرض نيس 1938 م ومعارض الجزائر 1939، 1941، 1944.

وقد اجمع نقاد الفن من جزائريين وأجانب على أن عمر راسم أعطى نفسا جديدا ودفعنا قويا للفن الإسلامي بالجزائر وتبقى العمال التي نعرضها صورة حقيقية ومثالا حيا للعبقريّة الفذة الخالدة.

اللوحات

1- لوحة زخرفية مقاساتها الخارجية، قوامها طبعة نجمي تتوسطه كلمة (يا فتاح) مزدانة بزخارف نباتية وخطية بالقلم الكوفي والنسخي، وموقعة باسم الفنان ومؤرخة سنة 1936. وما يلفت النظر في هذه اللوحة الإنسجام والتناغم بين الزخارف والألوان. محفوظة بالمتحف الوطني للآثار القديمة.

2- تمثل راحة الكف (الخامسة) تتوسطها كلمة (يا فتاح) مكتوبة طردا وعكسا وهي مرسومة داخل عقد مفصص محدد من الأسفل والأعلى بشريطين كتابيين في الأعلى (البسمة) وفي الأسفل (فאלله خير حافظا)، وخارج الشريط كتب : تذكرة من عمر راسم الجزائري إلى بلبل العالم العربي على رغم الحسدة والمدبدين والمقلدين المتعصرين الشاب أحمد سرى. الجزائر جمادى الثانية 1370. عمر راسم ملك خاص.

3- لوحة زخرفية قوامها نجمة ثمانية الأضلاع تزينها سيقان نباتية وأوراق مزهرة على خلفية بنية داخل دائرة بيضوية تتوسط

- النجمة كتابة بخط الثلث باللون الأصفر» الآية 11 من سورة المجادلة» ويحدها من الأعلى والأسفل شريط كتابي بالخط الكوفي. البسملة في الأعلى وفي الأسفل حديث شريف : "تعلموا العلم ولو بالصين" مؤرخة بـ 1344هـ/1926م وموقعة بصيغة عمر بن علي راسم بالجزائر. محفوظة بالمتحف الوطني للآثار القديمة.
- 4- لوحة زخرفية قوامها زخارف نباتية وخطية من نوع الثلث، خطت طردا وعكسا نصها : الآية الرابعة من سورة الطلاق (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا). مؤرخة في 1343هـ الموافق 1925م وقعا الفنان بصيغة : عمل السيد عمر راسم بالجزائر، وقد جاءت اللوحة في غاية الجمال نتيجة تعدد الألوان على خلفية زرقاء. محفوظة بالمتحف الوطني للآثار القديمة.
- 5- لوحة خرفية يتوسطها شكل بيضوي بداخل طائر مشكل عن طريق البسملة إضافة للآية الثانية الثانية من سورة الفاتحة بخط الثلث. وهي لوحة انجزت خلال وجوده بالسجن. ممضية ومؤرخة 1339هـ الموافق 1920. وتقدير روائع الفنان. محفوظة بالمتحف الوطني للآثار.
- 6- لوحة مركبة قوام زخرفتها هندسية ونباتية وخطية، تتمثل الهندسية في الطبق النجمي وسط اللوحة أما النباتية فتبرز في الأغصان والأوراق التي تملأ البحور في.. تتمثل الكتابة في الأشرطة الموزعة في البحور بالخط الكوفي ونصها عبارة عن أقوال مأثورة. محفوظة بالمتحف الوطني للآثار.

7- لوحة زخرفية من روائع ما أنجز الفنان تتمثل في منظر شرفة مطلة على البحر تتوسطها نافورة مزينة بأقواس من طراز العمارة الجزائرية في العصر العثماني مؤرخة سنة 1343هـ الموافق 1925م، وقعها الفنان بصيغة : العبد الفقير إلى مولاه السيد عمر راسم الصنهاجي بالجزائر المحمية، بخط الثلث على اليمين وعلى اليسار بالفرنسية، محفوظة بالمتحف الوطني للآثار القديمة.

8- لوحة زخرفية على خلفية وردية قوام زخارفها وريدة تتوسطها الآية 35 من سورة النور والآية 48 من سورة الفتح تحيط بها زخرفة من التوريق، وفي أعلى اللوحة «البسمة» أما في الأسفل فنجد الآية : إنا فتحنا لك فتحا مبينا بالخط الكوفي، وأسفلها مباشرة : (نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين الصادقين) بالخط المغربي. وقعت اللوحة في الأسفل على اليمين، عمر راسم بالجزائر وعلى اليسار بالفرنسية.

9- عبارة عن ورقة مزدوجة للمصحف في الصفحة الأولى سورة الفاتحة وفي الصفحة الثانية آيات من سورة البقرة كتبت بالخط النسخي، يعتقد أن الكتابة لأخيه محمد أما الزخرفة فهي بريشة عمر، تخلو اللوحة من التوقيع والتاريخ. محفوظة بالمتحف الوطني للفنون والتقاليد الشعبية.

10- قوام زخارفها طبق نجمي محاط بشريطين كتابيين بالخط الكوفي، في الأعلى : « الفو الأفراح » وفي الأسفل : « في المساء والصباح »

11- كتابة على بلاطات خزفية من الثلث المركب نصها : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى »

كانت بجدار في الجامع الجديد. ونقلت إلى المتحف الوطني للآثار القديمة، موقعة بصيغة : عمر راسم بالجزائر.

12- ورقة تضم قصيدة محمد العيد آل خليفة للأستاذ عمر راسم المحترم وتضم عشرة أبيات، في أسفل الرقة على اليمين كتب : الجزائر يوم الأربعاء 9 محرم 1358 هـ / 9 مارس 1936، وعلى اليسار كتب : محمد العيد بن محمد علي خليفة.

الكتب

1- ربع المصحف الشريف، يضم 368 ص فقدت الورقتان الأولى والثانية منه، مكتوب بالخط المغربي الجميل، طبع على ذمة أحمد بن مراد التركي وأخيه بالجزائر سنة 1325هـ/1907 - 1908م وأسفل التاريخ اسم الخطاط بالصيغة التالية : كتبها الفقير إلى مولاه عمر راسم.

2- إنجيل سيدنا يسوع المسيح كما كتبه المبشر متى ما ترجم من اليونانية باللسان العربي الدارج في إفريقيا الشمالية والمعروف

بالعربية البربرية، زين الغلاف بعقد حدوي مفصص وكتب بخط مغربي.

3- إنجيل مرفس عدد صفحاته 32 ص كتب بالعربية البربرية مثل إنجيل متى.

4- كتاب أعمال الرسل، كتبه المبشر لوقا عدد صفحاته 50 مرقمة من 2-48، يحتوي على 28 فصلا عدد سطور الصفحة 22.

5- حكاية المسيح : كلام منظوم بلسان العامة المفهوم طبع تحت نظرا لإرسالية الميتودوكسية بالجزائر، مكتوب بخط الثلث ممضي في الأسفل على اليسار بالفرنسية عمر راسم وعلى اليمين بالعربية.

أغلفة الكتب

- 1- غلاف كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني، كتب العنوان بالخط الكوفي المركب وتحت العنوان كتب بخط الثلث : تاريخ الجزائر إلى يومنا هذا وجغرافيتها الطبيعية والسياسية وعناصر سكانها ومدنها وأنظمتها وقوانينها ومجالها وحالتها الاقتصادية والاجتماعية، تأليف احمد توفيق المدني. الإسلام ديننا، الجزائر وطننا، العربية لغتنا، وعلى الراية كتب : حب الوطن من الإيمان، على اليسار وقع الفنان بصيغة : عمر راسم بالجزائر 1351هـ/ 1931م ومن تحته بالفرنسية : O Racim, ALGER

- 2- غلاف كاتب عبد الرحمن بلحفاف : مدخل الدراسات في الإسلام، موقع من طرف عمر راسم باللغتين العربية والفرنسية بتاريخ 1926م.
- 3- لوحة لغلاف كتاب باللغة الأجنبية بعنوان (هلال لوبي)، وقع عمر راسم في الأسفل دون ذكر التاريخ.

أغلفة المجلات

- 1- غلاف مجلة (الجزائر) موقعة ومؤرخة 1326هـ.
- 2- غلاف مجلة (ذو الفقار) عدد 1، 2، 3، 4 موقعة باسم : ابن المنصور الصنهاجي.
- 3- غلاف (مجلة السلام) تضم صورة علي راسم والد عمر.
- 4- غلاف مجلة سلام إفريقيا موقعة في الأسفل إلى اليسار باللغة الأجنبية.
- 5- غلاف جريدة (الحق الوهراني) لسنة 1913م. حيث كان عمر يعمل بها مراسلا ثم كاتباً ثم خطاطاً ويكتب العناوين الداخلية للجريدة بخط الثلث. وبقيّة الكتابة بالخط المغربي.
- 6- غلاف (مجلة الشهاب) لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين دون إمضاء.
- 7- زخرفة داخل صفحات مجلة (الجزائرية، Algeria) 1935م.
- 8- مجلة هنا الجزائر : إخبارية خط فيها عمر راسم اسم المجلة بالخط الكوفي وعناوين مختلفة بالخط المغربي.

كتابات مختلفة

لافتات بأسماء شوارع القصبة بالخط المغربي وأخرى بالثلث.

آية الكرسي بخط مغربي دون إمضاء.

أختام بأسماء حكام الجزائر المستعمرة : تيودور أستيق 1921،

موريس فيوليت 1925، بيير بورد 1927م.

غلاف اسطوانة سيوديو ياسفيك، شكلها بالزخرفة والخط، (بالبل
والحان).

إطارات لصور شخصية : مولاي يوسف سلطان المغرب، باي تونس :

محمد لحبيب باشا، المقيم الفرنسي العام بتونس، تيودور أستيق :
حاكم الجزائر.

اللوحات الإشهارية

- لوحتين إشهاريتين للمشروب الغازي حمود بوعلام.

- لوحتين إشهاريتين لسجائر باسطوس.

- لوحات إشهارية ودعائية لأدوية علاجية خاصة بالحلق.

- لوحة إشهارية للشركة البترولية (شل).